مطرانية بني مزار
و البهنسا

نبذات روحية هادئة
(٩٩)

يونان و توبة نينوى

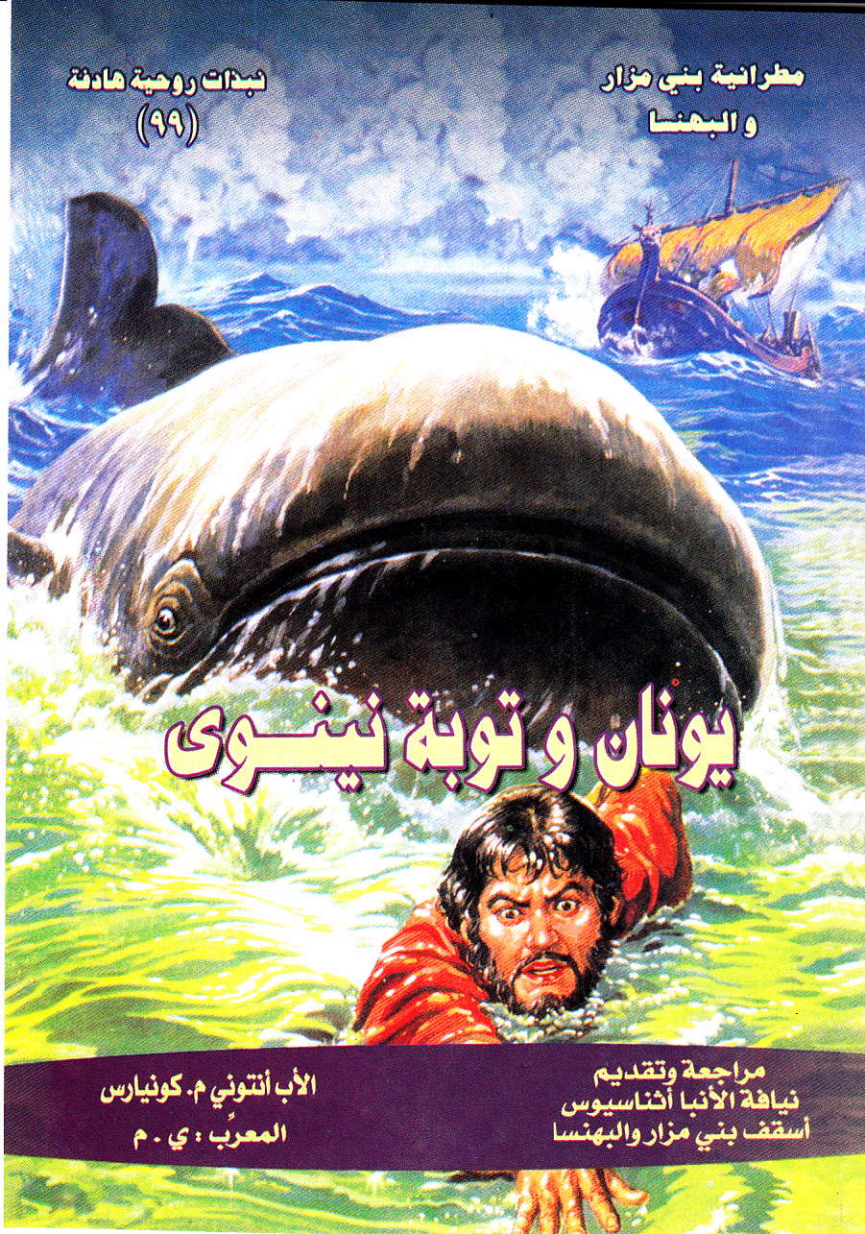

مراجعة وتقديم
نيافة الأنبا أثناسيوس
أسقف بني مزار والبهنسا

الأب أنتوني م. كونيارس
المعرِّب : ي . م

نيافة الحبر الجليل الأنبا أثناسيوس
أسقف بني مزار والبهنسا

ليس هناك سِفر آخَر في العهد القديم يُظهِر محبَّة الله بطريقة أعجب من المحبَّة التي يُظهرها هذا السِّفر، فهو يحمل رسالة توبة لجميع العصور. الله يهتم بجميع الناس ويغفر لجميع التائبين إليه سواء كانوا أممًا أو يهودًا. وقصَّة يونان هي أروع صورة لعمل الفداء الإلهي، وأنبل نبذة دينيَّة للتبشير والمناداة بالإنجيل.

رسالة الله ليونان:

«وصار قول الرب إلى يونان بنِ أمِتَّاي قائلاً:

"قُم اذهب إلى نينوى المدينة العظيمة ونادِ عليها، لأنَّه قد صعد شرُّهم أمامي"».

عندما أتت كلمة الرب إلى يونان هذه المرَّة، لم يطلب الرب منه أن يتنبَّأ على إسرائيل مثلما فعل من قبل، ولكن أن يقوم ويمضي إلى نينوى، المدينة الكبرى والرئيسيَّة للأشوريِّين، والمشهورة بشرِّ سكَّانها ووحشيَّتهم. كان عليه أن يُبشِّرهم ويُحذِّرهم من دينونة الله الوشيكة. حقيقة أنَّ شر نينوى قد: «**صَعَد إلى الرب**» تُوضِّح لنا بأجلى بيان أن الله يهمُّه ويعني بكل أمم الأرض وليس إسرائيل فقط، فلا يزال هو: «**ديَّان كل الأرض**» (تك١٨: ٢٥).

ربَّما ظنَّ يونان أن مهمَّته ستكون خطيرة للغاية لسبب واضح،

وهو أنَّ الأشوريِّين القساة والمتوحِّشين والفاسقين لن يقبلوا نبيًّا إسرائيليًّا يحذِّرهم بدينونة آتية، ولن يستقبلوه بترحاب. لم يذكُر الكتاب شيئًا عمَّا كان مُتوقَّعًا أن يعملوه فيه.

ولكن لم يكن يونان خائفًا من الموت كما هو واضح من تصرُّفه الأخير وهو على السفينة المتَّجهة إلى ترشيش، ولكن كان خوفه الحقيقي من أن يتوب بالفعل أهل نينوى، والله يعفو ويصفح عنهم: **«آه يا رب، أليس هذا كلامي إذ كنتُ بعد في أرضي؟ لذلك بادرتُ إلى الهرب إلى ترشيش، لأنِّي علمتُ أنَّك إله رؤوف ورحيم، بطيء الغضب وكثير الرَّحمة ونادمٌ على الشَّر»** (يون٤: ٢).

وربَّما قد خطر سؤال آخَر في فِكر يونان، ألا وهو: كيف سيتفاعل شعبه بنو إسرائيل مع مثل هذه المهمَّة؟ فقد كان يونان معروفًا وذا حيثيَّة في بلده ويُنظَر إليه بكلِّ إجلالٍ واحترام، ولا يمكن أن تظل مهمَّته في خفية، وهل يمكن أن ينظروا إلى هذه المهمَّة نظرة تدميريَّة أو فاسدة أو بالأحرى يعتبرونها خيانة عظمى لقلب نظام الحُكم؟

وأيًّا كانت هذه المُعطَيات المُعقَّدة، فقد كانت النتيجة النهائيَّة هي أن يونان، نبي الله المُقدَّس اختار القرار الخطير والمُرعِب، وهو أن يُخالِف الله ويهرب منه.

هروب يونان:

«فقام يونان ليهرب إلى ترشيش من وجه الرب، فنزل إلى يافا ووجد سفينة ذاهبة إلى ترشيش، فدفع أُجرتها ونزل فيها، ليذهب معهم إلى ترشيش من وجه الرب».

وبدلاً من أن يتَّجه يونان شمالاً وشرقًا نحو المدينة العظيمة نينوى كما قال له الرب: «**نزل إلى يافا**»، ثمَّ أبحر على مَتْنِ سفينة ذاهبة إلى أقصى الغرب: «**ليذهب إلى ترشيش من وجه الرب**».

قال الرب ليونان: «**قُم، اذهب إلى نينوى**»، وأدرك يونان أنَّه لن يتمكَّن من أن يستمر في البقاء حيث هو موجود، فـ «**قام**»، ولكن ليس نحو نينوى؛ بل بدلاً من ذلك: «**قام ليهرب إلى ترشيش**».

ولكن لماذا ترشيش بالذات؟ ظلَّ المدرسيُّون لقرون طويلة يتضاربون في موضع ترشيش، ولكن صار هناك اتِّفاق شبه إجماع أنَّها مركز تجاري بعيد أنشأه الفينيقيُّون، ربَّما عند الحدِّ الخارجي لرحلاتهم البحريَّة. يبدو أنَّ يونان قرَّر أن يبعد بقدر الإمكان عن إسرائيل، فربَّما ينساه الله هناك، أو يرى الله أنَّها ليست فكرة جيِّدة أن يُرسِل نبيًّا إسرائيليًّا إلى نينوى بعد كل ما حدث.

النقطة الأساسيَّة طبعًا في دراستنا هنا هي أنَّ يونان حاول بكلِّ

الطُّرُق أن يبتعد جدًّا عن إسرائيل وعن الله، بقدر ما يستطيع، وكان هذا المكان هو ترشيش؛ أينما كانت ترشيش هذه. ومن ثمَّ فقد وجد النبي الهارب واحدة من سفن ترشيش تلك القويَّة بعدما نزل من يافا، واشترى تذكرة ودفع الأجرة. كانت سفن ترشيش قويَّة ومراكب الفينيقيِّين متينة، وبحَّارها الذين يجوبون البحار متمرِّسين في الملاحة في ذلك العالم القديم. كان يونان واثقًا أن السفينة التي ركبها ستأخذه بعيدًا عن نينوى وعن حضرة الله غير المريحة.

لماذا هرب يونان من المهمة التي كلفه بها الله؟

[١] هناك سبب مذكور في (٤:٢) وهو أنه عرف أن الله في رحمته سيقبل توبتهم فيصير يونان في أعينهم ككاذب.

[٢] يونان كان يتمنى هلاك أشور لأنها ألدَّ أعداء إسرائيل، وليس الصفح عنهم، لذلك خرج بعد أن وجه إنذاره لنينوى وصنع له مظلة أمام المدينة منتظرًا خرابها.

[٣] ربما خاف يونان من شر الأشوريين فهم دمويُّون وربما قتلوه لو أنذرهم.

[٤] ذهابه لأشور عدو إسرائيل يعتبر خيانة لملك إسرائيل، وربما اتهموه بالتجسس لحساب العدو.

[٥] ذهابه لشعب وثني ضد فكر ومزاج شعب إسرائيل الذين يعتبرون أنفسهم شعب الله المختار، وبذلك سيسقط من نظر شعبه وكهنة وأنبياء شعبه.

نزل... نزل... نزل: تتكرَّر كلمة نزل في عدد ٣ مرتين ثم تأتي ثالثة في آية (٥). فهو نزل إلى يافا ثم إلى السفينة ثم نزل إلى جوف السفينة. وبهذا تكررت كلمة نزل ٣ مرات، وهكذا لأنَّه ترك الله وهرب منه نجده في نزول مستمر وبالخطية عمومًا نكون في نزول مستمر. وهو نزل إلى يافا أولاً (هذه تشير لمن يترك الله وينجذب لجمال العالم لأنَّ يافا تعني جمال)، ثم نزل إلى السفينة والسفينة في البحر، وماء البحر مالح، من يشرب منه يعطش (وهذه تشير لمن ينجذب لجمال العالم ويبدأ يشبع شهواته من العالم)، ثم نزل لقاع السفينة حيث نام نومًا عميقًا، ولم يوقظه هياج البحر (وهذه إشارة لمن عاش في الخطية، ففقد حواسه الروحية، أي أطفأ الروح القدس فيه، ولم يعد يسمع صوت تبكيت الروح وإنذاراته). مثل هذا الخاطئ ماذا يفعل معه الله؟ لا حَلَّ سوى تجربة صعبة. وهذا ما حدث فلقد رموه في البحر ومنه إلى جوف الحوت.

هياج البحر:

«فأرسل الرب ريحًا شديدة إلى البحر، فحدث نَوْءٌ عظيمٌ في البحر حتى كادت السفينة تنكسر.

فخاف الملاَّحون وصرخوا كلُّ واحد إلى إلهه، وطرحوا الأمتعة التي في السفينة إلى البحر ليُخفِّفوا عنهم. وأمَّا يونان فكان قد نزل إلى جوف السفينة واضطجع ونام نومًا ثقيلاً».

على أي حال، هبَّت ريح شديدة فجأة على البحر، وحدث نوءٌ عظيم أعنف ممَّا اختبره أو جازه أو قابله البحَّارة المُتمرِّسون. كان تجهيز طاقم سفينة ترشيش يأخذ مجراه الدقيق بطاقم نوتيَّة بارع ومدرَّب، ولابد أنَّهم قد تعرَّضوا لعواصف شديدة من قبل، ولكن ليس كهذه، فهي مختلفة! فقد أحدثها الله ذاته. وإذ بذلوا أقصى جهدهم، مع ذلك تعذَّر عليهم ضبط السفينة أمام هذه اللطمات المتوالية والعنيفة والمدمِّرة.

فأرسل الرب ريحًا شديدة: كان خطأ يونان أنه ظن أنه بهروبه سيهرب من الله، ولم يدرِ أن الله في كل مكان. هذا ما عبَّر عنه داود في مز١٣٩ وبالذات الآية (٧): «**أين أذهب من روحك؟ ومن**

وجهك أين أهرب». وبسبب هروبه من الله، وجهله بالله جلب على نفسه هذه العواصف. كان يليق به أن يهرب إلى الله، لا أن يهرب منه. هو هرب من الله، فما عاد يسمع صوت الله الهادئ المنخفض الخفيف الذي سمعه إيليا (١مل١٩: ١٢) (فهذا لا يسمعه إلا من كان قريبًا من الله). ولأن يونان ابتعد وهرب من الله، فقد حدَّثه الله بلغة أخرى هي لغة الضيقات المتوالية (ريح شديدة- نوء عظيم- حوت...). هذا ما حدث أيضًا للابن الضال، فحين ترك أباه جاءت عليه المجاعة. فإنَّه حين يكون الرب غير راضٍ، لا يكون شيء في أمان. فحين صُلِب المسيح اضطرب نظام الكون وصارت هناك ظلمة. علينا إذًا أن نعرف سبب أي ضيقة تمر بنا، فقد يكون وراءها خطية جعلتنا نبتعد عن الله فما عدنا نسمع صوت تبكيته المنخفض.

لم يكن باستطاعة النوتيَّة في سفينة يونان أن يُصلُّوا «**إلى الرب**»، أي "يهوه"، هذا الإله الذي يتحكَّم في البحر لأنَّهم لم يكونوا يعرفونه، ولكن كلُّ واحد كان يُصلِّي لإلهه، إذ لم يكونوا جميعهم فينيقيِّين، ولكنهم ملاحُّونَ مدرَّبون ماهرون من بلاد مختلفة؛ ولكن لم تستطع آلهتهم أن تتدخَّل وتُنقذ.

أخذوا في طرح الأمتعة التي في السفينة إلى البحر ليُخفِّفوا عنهم،

ولكن كان البحر يزداد اضطرابًا. كان هذا القرار الـذي اتَّخـذوه يُعبِّر عن منتهى يأسهم، لأن الأحمال والأمتعة كانت هـي سـبب الرحلة بالدرجة الأولى للتجارة.

عندئذ اكتشفوا أن الراكب الوحيد الغريب الذي كـان معهـم كان يغُطُّ في نوم عميق، ولكن أن ينام في مثل هذه الظروف فهـذا أمرٌ عجيب؛ ولكن على أي حال فإنَّهم أيقظوه وطلبـوا منـه أن يُصلِّي إلى إلهه، خصوصًا أنَّه كان من المحتمل أنَّهم يعرفون أن يونان يعبد إله إسرائيل، ذاك الذي يقول عنه الإسرائيليُّون إنَّه خالق السماء والأرض؛ وإن كان هذا الكلام صوابًا، فيكون بالتالي يونـان هـو الوحيد الذي يجب عليه أن يُصلِّي، فآلهتهم لم تستطع التدخُّل.

كانت تلك السفينة قويَّة مثل أي سفينة في تلك الأيَّام مبحِرَة إلى ترشيش، وقام البحَّارة بطرح الأمتعة في البحر، حتى يمكـن تقليـل حمولة السفينة إلى أقل ما يمكن، ومع ذلك كادت السفينة أن تنقلـع وتندفع وتسقط بقوَّة حتى أصبحت على شَفَا أن تنكسر، فخـاف الملاَّحون أن يغرقوا.

رمى الملاَّحون ما كان غاليًا عليهم ليشتروا حياتهم الجـسديَّة؛ هـل نقبل نحن أن نلقي ملذاتنا العالميَّة لنشتري حياتنا الأبديَّة وهي الأهم؟!

إيقاظ يونان:

«فجاء إليه رئيس النوتيَّة وقال له: "مالـك نائمًـا؟ قـم اصرخ إلى إلهك عسى أن يفتكر الإله فينا فلا نهلك".

وقال بعضهم لبعض: "هلمَّ نُلقي قُرَعًا لنعرف بسبب مَن هذه البليَّة"، فألقوا قُرَعًا ، فوقعت القُرعَة على يونان».

من المحتمل أن يكون قبطان السفينة له معرفة بيونان أكثـر مـن الآخَرين، فشعر أنَّه من المُلِحِّ أن يقوم يونان ويصلِّي إلى إلهـه، إذ لم يسبق لهم أن واجهتهم عاصفة شديدة مثل هذه، ولم يكن مِن مُتغيِّرات في هذه الرحلة سوى هذا الرجل "يونـان"، وظـنَّ النوتيَّة أنَّه من المحتمل أن تفعل هذه العاصفة شيئًا في يونـان وهو في السفينة، وعلى أي حال أو احتمال، كان يجب عليـه أن يُصلِّي لا أن ينام!

يونان يعترف:

فقالوا له: "ماذا نصنع بك ليسكن البحر عنَّا؟" لأن البحر كان يزداد اضطرابًا.

فقال لهم: "خذوني واطرحوني في البحر فيسكن البحـر عنكم، لأنِّي عالِم أنَّه بسببي هذا النوء العظيم عليكم".

كيف عرف يونان أن العاصفة ستهدأ عندما يأخذونه ويطرحونه في البحر؟ وسيَّان أكانت السفينة في ذلك الوقت في مياه البحر المتوسِّط، أو كانت في المحيط الأطلسي، فقد كانت عواصف شديدة تحدث كثيرًا في كلٍّ منهما، وكم من سفن، قديمة وجديدة أصبح مثواها في قاع مياهها العميقة. ربَّما تكون الشكوك قد خامرت يونان في أن الله قد أرسل هذه العاصفة بسبب وجوده في السفينة، ولكنَّه كان متأكِّدًا أنَّ الله سيقول: «**ابكم، اهدأ**» للأمواج الثائرة. كيف علِم هذا؟

ثمَّ قال للنوتيَّة وهو في منتهى الهدوء أن يدفعوه للموت؟ فيما كان الواحد منَّا يتوقَّع أنَّه سيُقاوم بكلِّ قوَّته، مرَّة بالتوسُّل وتارة بالرجاء والدموع حتى لا يتَّخذوا هذا القرار ليتخلَّصوا منه بهذه الطريقة.

طرح يونان في البحر:

«ولكن الرجال جَذَفوا ليُرجِّعوا السفينة إلى البر فلم يستطيعوا، لأنَّ البحر كان يزداد اضطرابًا عليهم.

فصرخوا إلى الرب وقالوا: "آه يارب، لا نهلك من أجل نفس هذا الرجل، ولا تجعل علينا دمًا بريئًا، لأنَّك ياربُّ فعلتَ كما شئتَ".

ثمَّ أخذوا يونان وطرحوه في البحر، فوقف البحر عن هيجانه».

لابدَّ أن قلوب البحارة القاسية قد تأثَّرَت جدًّا من رغبة يونان أن يموت من أجلهم، فعملوا كل ما في وسعهم ليُرجِّعوا السفينة إلى البر دون أن يلجأوا إلى هذا القرار الصَّعب، ولكن باءت كل محاولاتهم بالفشل. كل ما استطاعوا أن يعملوه هو أن يجذِّفوا بكلِّ قوَّة؛ ولكن كانت قلاعهم بلا جدوى أمام هذه الريح الهائجة والعنيفة، وظلُّوا مثابرين في محاولات التجذيف إلى أن يئسوا تمامًا، ولم يعد هناك أمل إلاَّ في حدوث معجزة إلهيَّة تُنقذهم.

زِد على ذلك، عجز الآلهة التي صلُّوا إليها في أن تنقذهم. أخبر يونان النوتية عن إرساليَّته من: "الرب"، وقال لهم إنَّ إلهه: "الرب (أي يهوه)" ليس فقط هو الذي أرسل الريح الشديدة، بل هو أيضًا: «**الرب إله السماء، الذي صنع البحر والبر**» (يون١: ٩)، وأصبح واضحًا أن البحر الذي صنعه قد صار ضدَّهم، ولم يعُد من حلٍّ سوى إلقاء يونان في الماء كما قال لهم.

مع أنَّ خلفيَّات هؤلاء البحارة وثنيَّة، إلاَّ أنَّه كان لهم بالتأكيد إعلانٌ بدائيٌّ باقٍ فيهم ليعرفوا أن الجريمة تُعاقَب بالموت. وفي إرسال

يونان ليموت في البحر، فهذه تُعتَبَر جريمة لقتل إنسان بريء، إنسان دفع لهم أجرة السفينة برضاه، واستأمنهم أن يوصِّلوه إلى مرامه. لذلك فقد صلُّوا إلى يهوه وقالوا: «**لا تجعل علينا دمًا بريئًا**».

ثمَّ قام البحارة بتغصُّب وكُره شديد وألقوا يونان في البحر، وكان لابدَّ لهذا أن يتم.

لذلك لم يَقتُل يونان نفسه، ولكن آخرين قتلوه. وبغض النظر عن الأحوال والظروف، فإنَّ البحَّارة كانوا مذنبين بالقتل عندما ألقوا بيونان في عرض البحر.

طَرَح البحارة يونان في البحر بكلِّ احترام وإكرام فهدأ البحر، هل نُلقِي نحن عنَّا خطايانا فتهدأ حياتنا؟

الحوت يبتلع يونان:

«وأمَّا الربُّ فأعدَّ حوتًا عظيمًا ليبتلع يونان. فكان يونان في بطن الحوت ثلاثة أيَّام وثلاث ليالٍ».

الأمور تسير بتدبير إلهي فها هو الحوت ينتظر يونان في الماء ليهبه مبيتًا آمنًا لا موتًا. فالله لا يريد الانتقام من يونان بل أن يصلحه لكي يرسله من جديد. وهكذا كل تجربة يسمح بها الله لنا، هو أن ينصلح حالنا ونكمل عملنا الذي خلقنا الله لأجله (أف٢: ١٠)

ونصلح لملكوت السموات. وكما كان يونان في بطن الحوت ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ هكذا كان المسيح في القبر ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ. والمسيح مات يوم الجمعة وقام فجر الأحد أي أنه قضى في القبر جزءًا من يوم الجمعة ويوم السبت كاملاً وجزءًا من يوم الأحد. ولكن هذه المدة تُحسب ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ... لماذا؟

[١] يعتبر اليهود أجزاء اليوم يوماً كاملاً في حسابهم

[٢] يُعبِّر اليهود عن اليوم بقولهم صباح ومساء (تك إصحاح ١ + دا ٨: ١٤ + تث٩: ١٩ + ١مل١٩: ٨).

يقول النص بوضوح إنَّ: «**يونان كان في بطن الحوت ثلاثة أيَّام وثلاث ليالٍ**» (يون١: ١٧)، وحيث إنَّه لم تكن هناك وسيلة له أو للبحارة أن يقيسوا هذه المدَّة، فمن المفترَض أن الله هو الذي أعطى هذه المعلومة ليونان فيما بعد، ربَّما أنَّه بكيفيَّة ما ستمدُّنا ببصيرة خاصَّة نحو الهدف الأساسي من اختبار يونان ومن سِفرِه.

صلاة يونان:

«حين أعيت فيَّ نفسي ذكرتُ الرب، فجاءت إليك صلاتي إلى هيكل قدسك.

الذين يُراعون أباطيل كاذبة يتركون نعمتهم.

أمَّا أنا فبصوت الحمد أذبح لك، وأوفي بما نذرته. للـــربِّ الخلاص».

عندما صلَّى، تذكَّر يونان كيف كان أحمقَ عندما فكَّر أنَّه يمكنه أن يهرب من ربِّ السماء والأرض بثقته بجماعـــة بحَّـــارة وثنـــيِّين ليأخذوه بعيدًا عن إسرائيل ومن نينوى. هؤلاء الناس أيضًا كـــانوا: «**يراعون أباطيل كاذبة**»، أي آلهة باطلة وحقيرة، مثلما كان يعمـــل الأشوريُّون الذين أرسله إليهم ليكرز فيما بينهم، وعدم قدرة هـــذه الآلهة قد وَضَحَت جيِّدًا عندما لم تستطع أن تـــستجيب لـــصلوات البحَّارة الذين استدعوهم ليوقفوا العاصفة ويهدئوا البحر.

ويونان نفسه في الواقع صدَّق هذه: «**الأباطيل الكاذبـــة**»، والآن صار خَجِلاً جدًّا وقدَّم توبة حقيقيَّة. كان يونان سابقًا قد هجر الله الذي ليس هو الكلِّي القدرة فقط، بل الكلِّي الرَّحمة أيضًا. أظهر الله طبيعته الرحيمة عندما أرسله ليبشِّر أهل نينوى، وهرب يونان مـــن رحمته وجرى بعيدًا.

وكل مؤمن مملوء من الروح القُدُس، وكل تائب شاعر بغفـــران الله لا يستطيع إلاَّ أن يُعبِّر عن فرحه بالتسبيح بعد أن يملأه الـــروح فرحًا وتعزية.

خروج يونان حيًا:

«وأمر الرب الحوت فقذف يونان إلى البَر».

درْس آخر ليونان في الرحمة. فها هـــو الحـــوت يلقيـــه دون أن يؤذيه. فكيف يرفض هو خلاص أهل نينوى. البحارة أعطوه درسًا والحوت أعطاه درسًا آخر. لكن هذه الآية نبوة عن قيامة المـــسيح، فما كان ممكناً للقبر أن يظل مغلقًا عليه: «**لأنك لا تترك نفـــسي في الهاوية ولا تدع قدوسك يرى فسادًا**» (مز١٦: ١٠) ويونـــان رمـــز للمسيح.

يمكننا أن نتصوَّر المشاعر والأحاسيس المركَّبة التي جاشت داخل يونان في ذلك الوقت: فهي مزيج من الارتياع والروعـــة والفـــرح والشكر والدهشة؛ ولا أحد طبعًا جاز مثل هذه الخبرة من قبل، فها هو الآن حيًّا وبحالة جيِّدة على أرضٍ جافَّة. ومهما كانت مـــشاعره الجيَّاشة في ذلك الوقت، إلاَّ أنَّها لم تكن تحمل أبدًا أي مشاعر تمرُّد، فقد صمَّم أن يُنفِّذ مشيئة الله.

لم يخبرنا النَّص أين أرساه الحوت، فقد يكون عاد إلى يافا مـــن حيث يمكنه أن يبدأ من جديد. يذكر يوسيفوس Josephus المؤرِّخ اليهودي أنَّه أرسى على شاطئ للبحر الأسود. كان الله يريـــده أن

يذهب إلى نينوى، وربَّما وجَّه الله الحوت إلى أقرب مكان مِن نينوى، مَن يَعلَم؟!

مع أنَّ الحوت قذف يونان إلى البَر، لكن ستظل الرِّحلة إلى نينوى طويلة، وإن كنَّا لا نعلم مِن أين بدأت، حيث لم يذكر الكتاب أين أرساه الحوت، وإن كان يُظن أنَّه لا زالت أمامه مسافة تقرب من ٤٠٠ ميل. كما لا يخبرنا النص، هل استخدم حصانًا أو جملاً أو ما شابه ذلك في رحلته، أم سار على الأقدام؟ لا نعلم.

تكليف يونان ثانية:

«ثمَّ صار قول الرب إلى يونان ثانية قائلاً:

"قُم اذهب إلى نينوى المدينة العظيمة، ونادِ لها المناداة التي أنا مُكلِّمُك بها"».

كانت نينوى بالفعل مدينة عظيمة، لكنَّها كانت أيضًا مدينة شرِّيرة آثِمَة، ومدينة قديمة. كان أهل نينوى أردياء السُّمعة عند أعدائهم إذا ما انتصروا عليهم، فقد كانوا أقوياء وعدوانيِّين، يُشهِّرون ويُنكِّلون بمن يهزمونهم. وكنتيجة لذلك، كان خوف مرعب يكتنف يونان، وكراهية شديدة تجيش في داخله نحو الأشوريِّين، وكم كانت مسرَّته أن يراهم يتحطَّمون وينهدمون وينهزمون.

إنذار يونان لنينوى:

«فقام يونان وذهب إلى نينوى بحسب قول الرب. أمَّا نينوى فكانت مدينة عظيمة لله مسيرة ثلاثة أيَّام.

فابتدأ يونان يدخل المدينة مسيرة يومٍ واحد، ونادى وقال: "بعد أربعين يومًا تنقلب نينوى"».

لابد أنَّ يونان أسهب في كلامه أكثر ممَّا هو مذكور في كتابه، ولكن الموضوع الأساسي كان: «**بعد أربعين يومًا تنقلب نينوى**».

والغريب في الأمر أنَّهم أنصتوا له! فربَّما عند وصول يونان إلى نينوى كانت الأخبار قد تناقَلَت وتبعثَرَت بخصوص الأحداث الغريبة التي جرت له في طريقه إلى ترشيش، ممَّا جعلهم يتحقَّقون فعلاً أن يونان شخصٌ مُرسَلٌ لهم من الله. كما أنَّ شكله الخارجي وهيئته بَدَت كما لو كانت غير أرضيَّة، من جرَّاء رحلته في بطن الحوت، ممَّا جعل الناس يرتعبون منه وهم يتابعون مناداته، وكانوا خائفين من أن يتداخلوا في حديثه، وكما قال الرب يسوع: «**كان يونان آية لأهل نينوى**» (لو١١: ٣٠).

بلا شك، نادى يونان بكرازته عن الدمار الشامل الذي سيلحق نينوى بكلِّ اقتناع، حيث إنَّ أشور كانت تُهدِّد إسرائيل

جدًّا، وكان يونان طبعًا يتمنَّى هلاكها ودمارها. لم يكن يخطر على بال يونان أنَّه من الممكن أن تتوب نينوى الأثيمة، وأن الله سيُمهِل عقابها إلى حوالي ١٠٠ سنة قادمة.

توبة أهل نينوى:

«فآمن أهل نينوى بالله ونادوا بصومٍ ولبسوا مسوحًا من كبيرهم إلى صغيرهم.

وبَلَغ الأمر ملك نينوى، فقام عن كرسيِّه وخلع رداءه عنه، وتغطَّى بمسحٍ وجلس على الرماد.

ونودِيَ وقيلَ في نينوى عن أمر الملك وعظمائه قائلاً: "لا تذُق الناس ولا البهائم ولا البقر ولا الغنم شيئًا، لا ترعَ ولا تشرب ماءً.

وليتغطَّ بمسوح الناس والبهائم، ويصرخوا إلى الله بشدَّة، ويرجعوا كلٌّ واحدٍ عن طريقه الرَّديئة وعن الظُّلم الذي في أيديهم،

لعلَّ الله يعود ويندم ويرجع عن حُموِّ غضبه فلا نهلك"».

المسوح: هي قماش غليظ خشن منسوج من شعر الماعز أو وبر الجمال وكان لبس المسوح علامة للحزن، وهنا هو علامة حزن

على الخطيَّة، أي علامة توبتهم. حقًّا كانت توبة عظيمة، فقد آمنت نينوى؛ أمَّا إسرائيل فقاوموا غير مصدِّقين. هم قدَّموا توبة حقيقيَّة عملية بصوم ومسوح، واشترك فيها الكل الكبار والصغار حتى البهائم. مع أن يونان لم يعط كلمة رجاء واحدة. ولم يكلِّمهم عن محبة الله وترفُّقه ولا علَّمهم شيئًا عن التوبة.

الأمر لا يُصدَّق أبدًا ولا يُعقَل، ولكنَّه حدث! فبدلاً من رفض يونان ومحاولة قتله، كشخص يتنبَّأ بما سيحدث، آمن أهل نينوى برسالته وعادوا إلى الرب، الإله الحقيقي! توجد انبعاثات ونهضات روحيَّة دينيَّة متعدِّدة في التاريخ، ولكن ليست كهذه أبدًا، من الملك الذي على العرش إلى أصغر فلاَّح، الجميع: «**آمنوا بالله**».

ما مدى العمق والأصالة التي كانت عليها توبة أهل نينوى من خلال مناداة يونان، فهذا أمر يحتاج طبعًا إلى طرح سؤال. لابدَّ أن توبتهم كانت في الأوَّل أصيلة وسريعة، قادها الملك والشُّرفاء، والملك الذي وإن لم يكن قد تقابل شخصيًّا مع يونان، إلاَّ أن ما سمعه عن كرازته كان كافيًا ليصدر مرسومًا يقول فيه: «**يرجعوا كلٌّ واحد عن طريقه الرديئة وعن الظُّلم الذي في أيديهم... وليتغطَّ**

بمسوح الناس والبهائم... ويصرخوا إلى الله بشدَّة».

يا له من مشهد وصوت عجيب في نينوى! تصوَّر معي كل المواطنين حتى البهائم وهم لابسون المسوح، وهم يصرخون بعلوٍّ صوتهم إلى إله يونان يسألوه أن ينقذ وأن يعفو عن المدينة.

الله سمع وسامح وعفا، ولكنَّهم لم يكونوا قد عرفوا كثيرًا عنه وعن خلاصه من مجرَّد تحذير يونان لهم عن الدينونة، وبالتأكيد لم يكونوا هم من الدخلاء إلى اليهوديَّة، لذلك لا نعرف الكثير عن العبادة التي قدَّموها ليهوه.

قبول الله توبتهم:

«فلمَّا رأى الله أعمالهم أنَّهم رجعوا عن طريقهم الرَّديئة، ندم الله على الشَّر الذي تكلَّم أن يصنعه بهم، فلم يصنعه».

ندم الله هو تعبير بحسب المفهوم البشري لا يعني أنَّ الله يُغيِّر رأيه ويندم، بل أنَّ الإنسان هو الذي يُغيِّر وضعه بالنِّسبة لله فيصير الحُكم بالنِّسبة له مختلفًا، فعندما يُعاند الإنسان يسقط تحت التأديب، وإذ يرتدُّ عن شرِّه ويرجع إلى الله، يجد الله فاتحًا أحضانه.

وَعَد الله أن يغفر إن تاب الناس حقًّا وآمنوا. أي أنَّه بإمكان الله أن يندم، أي يعفو ولا يُنفِّذ وعده بالدينونة إذا تاب الناس. لذلك، عندما تاب جميع أهل نينوى وآمنوا بالله، أكمل الله وعده المُتضمَّن أن يندم (والكلمة يتوب أو يندم repent معناها الأساسي: "تغيير الذهن") عن الدمار الذي كان مخطِّطًا أن يجريه عليهم.

يونان يغتم:

«فغمَّ ذلك يونان غمًّا شديدًا، فاغتاظ.

وصلَّى إلى الربِّ وقال: "آه يا رب، أليس هذا كلامي إذ كنتُ بعد في أرضي؟ لذلك بادرتُ إلى الهرب إلى ترشيش، لأنِّي علمتُ أنَّك إله رؤوف ورحيم بطيء الغضب وكثير الرَّحمة ونادمٌ على الشَّر"».

الله رحم نينوى ولم يهلكها **فاغتم يونان غمًّا شديدًا**، فهو غار لكرامته لئلاَّ يُحسَب نبيًّا كاذبًا، هو تنبَّأ بانقلاب المدينة وها هي قد نجت. وصلَّى يونان هنا ولكن شتَّان بين صلاته هنا وصلاته وهو في جوف الحوت، فهو هنا بَرَّر نفسه في هروبه من الله أولاً حين أرسله، بعد أن كان قد دان نفسه أولاً في بطن الحوت حين قال: «**الذين يراعون أباطيل كاذبة**

يتركون نعمتهم»، وهو هنا يلوم الله أنه **رؤوف ورحيم وبطيء الغضب**، مع أنَّه لو كان الله غير ذلك لكان قد أهلكه هو نفسه فورًا. وبعدها قدَّم يونان صلاته الخاطئة: **«يا رب خذ نفسي»**، ولو فعل الله ذلك لهلك يونان وخلصت نينوى، ولكن الله الحنون لا يتركه لضيقة نفسه بل يدخل معه في حوار ويعطيه درسًا باليقطينة حتى يتصالح معه.

حوار الله مع يونان:

«فالآن يا ربُّ، خُذ نفسي منِّي، لأنَّ موتي خيرٌ من حياتي.

فقال الربُّ: "هل اغتظتَ بالصواب؟"».

كان يونان متأكِّدًا أنَّ حياته في يد الله، فهو الذي خلَّصه من الغرق ومن بطن الحوت ومن الهاوية، وربَّما من غضب الأشوريِّين الشديد عندما أخذ في مناداته بحتميَّة دينونة الله.

أراد يونان أن يُدمِّر الله هؤلاء القوم الأشرار القساة الحقودين الانتقاميِّين، ولم تكن لديه أيَّة فكرة أنَّهم سيتوبون حقيقة ويتحوَّلون للرب نتيجة كرازته، أمَّا الآن وقد حدث هذا فقد بدا أن الله سيصفح عنهم بعد كلِّ هذا، وتصير حالهم وهم في يد الله أفضل في المستقبل عن أُمَّته الجاحدة والفاسدة، ولكنَّه لم يقبل

هذه الفكرة، ولم يكن هذا، بالنِّسبة له، شيئًا طيِّبًا على الإطلاق.

لذلك ترجَّى يونان الرب أن يموت بدلاً من هذا، موتًا لا رجعة فيه، إلاَّ أنَّ الله كان يريد أن يكمل يونان رسالته النبويَّة على الأرض، ولذلك، ففي توبيخ خفيف جيَّاش بالمحبَّة والحنان قال له: **«هل اغتظتَ بالصواب؟»**. كان يجب على يونان أن يتهلَّل فرحًا بزيادة لاستجابة أهل نينوى المُدهِش!

درس اليقطينة:

«وخرج يونان من المدينة وجلس شرقيَّ المدينة، وصنع لنفسه هناك مظلَّة وجلس تحتها في الظِّل، حتى يري ماذا يحدُث في المدينة.

فأعدَّ الربُّ الإله يقطينة فارتفعت فوق يونان لتكون ظلاًّ على رأسه، لكي يُخلِّصه من غمِّه. ففرح يونان من أجل اليقطينة فرحًا عظيمًا.

ثم أعدَّ الله دودة عند طلوع الفجر في الغد، فضربت اليقطينة فيبست».

كان يونان لا يزال حسب الظاهر وكما يبدو، آملاً أن يُنفِّذ الله توعُّده السابق ليقلب نينوى في ٤٠ يومًا (يونا٣: ٤)، لذلك قرَّر أن ينتظر ويرى. ربَّما تكون توبة هذه المدينة العظيمة السَّريعة، ليست

إلاَّ انفعالاً عاطفيًّا سطحيًّا؛ على أي حال الـ ٤٠ يومًا لم تنتهِ، فعليه أن ينتظر على الأقل هذه المدَّة.

في انتظار ما يحدث، لم يرغب يونان طبعًا أن يظلَّ في المدينة، لذلك قرَّر أن يعمل لنفسه نوعًا من المظلَّة خارج المدينة، فشيَّد لنفسه مظلَّة مناسبة قويَّة لينتظر فيها. الكلمة العبريَّة المترجمة: "مظلَّة booth-tabernacle" تُبيِّن أن يونان أقامها وجعلها مُعَدَّة ليمكث فيها عدَّة أيَّام.

ويبدو أنَّ ما أعدَّه لنفسه كان غير جيِّد، فأعدَّ له الرب المتعطِّف الشَّفوق يقطينة نَمَت بسرعة لتمدَّه بمزيد من الظِّل. وبدلاً من أن يُعاقب الله يونان بسبب موقفه العدائي تجاه نينوى، فقد أراد أن يُعلِّمه درسًا عن سبب عمله هذا. أحبَّ اللهُ يونانَ وأراد أن يظلَّ في استخدام هذا النبي، لأنَّ إسرائيل كانت في حاجة ماسَّة إلى رسالته. كان على يونان أن ينال معرفة جديدة، وفهمًا أعمق لمحبَّة الله ونعمته، وأفكاره وخططه، ليس لإسرائيل فقط، بل لكلِّ الأمم والشعوب.

رأى الله فرحة يونان وتقديره للظل الذي أحدثته اليقطينة، ورأى أن يستمرَّ هذا ليومٍ واحد، لأنَّه أرسل دودة خاصَّة لتأكل جذورها وتجعلها تذبل في يومٍ واحد. من المعروف أن نبات الخروع ينمو

سريعًا ويتلف سريعًا، ولكن نكرِّر مرَّة أخرى أنَّ الدودة هنا عملها معجزي، لتُتم هذا العمل بهذه السُّرعة! كان الله يريد أن يوجِّه درسًا خاصًّا إلى نبيِّه يونان.

يونان يتمنَّى الموت لنفسه:

«وحدث عند طلوع الشمس أنَّ الله أعدَّ ريحًا شرقيَّة حارَّة، فضربت الشمس على رأس يونان فذبُل، فطلب لنفسه الموت،وقال: "موتي خيرٌ من حياتي".

فقال الله ليونان: "هل اغتظتَ بالصَّواب مِن أجل اليقطينة؟" فقال: "اغتظتُ بالصَّواب حتى الموت».

تعرَّض يونان مرَّة أخرى للشمس المحرقة في الصحراء عندما اختفى فجأة الظل الناتج من أوراق الخروعة التي ذبلت، وهذا الأمر تفاقم وصار إلى أسوأ بسبب الرِّيح الشرقيَّة الحارَّة التي أعدَّها الرب. وكانت الحرارة الهابَّة والعاصفة الآتية من الصحراء غير محتملة. لم يستخدم الكتاب المقدَّس الصِّفة: "حارَّة ـ مُتَّقِدة ـ حارقة vehement" سوى مرَّة واحدة، ويبدو أنَّها تشير إلى الرِّيح الشرقيَّة المخيفة الحارقة شديدة الحرارة. غالبًا ما أصيب يونان بضربة شمس وصار في حالة إغماء.

طلب يونان لنفسه الموت مرَّة ثانية، وعبَّر عن هـذا للـرب في قوله: «**موتي خيرٌ من حياتي**»، وشعر بالمرارة وخيبة الأمل من ذبـول شجرة الخروع التي لا زرعها ولا ربَّاها، والتي ابتهج بها يومًا، وهـا هو الآن يلوم الله بسبب جفافها المفاجئ.

توبيخ الرب ليونان:

«فقال الرب: "أنتَ شفقتَ على اليقطينة التي لم تتعـب فيها ولا ربَّيتها، التي بِنتَ ليلة كانت وبِنتَ ليلة هلكت.

أفلا أُشفق أنا على نينوى المدينة العظيمة التي يوجد فيهـا أكثر من اثنتي عشرة ربوة من الناس الـذين لا يعرفـون يمينهم من شمالهم، وبهائم كثيرة؟"»

كان يونان شخصًا شجاعًا، نبيًّا حقيقيًّا، أحبَّ الله وشعب الله، إلاَّ أنَّه كان يتوق إلى هلاك نينوى، دون النظـر إلى آلاف النـاس: الرجال والنساء، بل والأطفال الأبرياء الذين يعيشون فيها.

كان يونان غاضبًا وثائرًا على ظلِّ الخروعة الذي اختفى، وعاتبًا على الله لأجل التعب الذي أصابه، وطالبًا منه أن يأخذ حياته. ممَّا لا شكَّ فيه، كان يونان مُحقًّا في خوفه من الأشـوريِّين الـسفَّاحين، ولكن لم يكونوا كلُّهم متعذِّرًا إصلاحهم أو تغييرهم، فقـد كـان

يوجد: «**فيها أكثر من اثنتي عشرة ربوة من الناس الذين لا يعرفـون يمينهم من شمالهم**»، ربَّما المقصود بهم: الأطفال الصغار، ولكن هـل يكون يونان مسرورًا أن يراهم يهلكون مع الأئمة الكبار الأشرار؟

نختم دراستنا لهذا السِّفر لنقول إنَّ **هذا السفر هو سفر حنـان الله**، ففيه نرى:

١. حنان الله على شعب نينوى فهو لا يريد موت الخاطئ بل أن يرجع ويحيا (حز ١٨: ٢٣).

٢. حنان الله مع يونان فإذ أخطأ يونان أعـاده الله بتجربـة شديدة (تأديب)، ومن يُحبه الرب يؤدِّبه (عب ١٢: ٦).

٣. في أثناء التجربة يحيط الله يونان بالتعزيات (راجع إصحاح ٢).

٤. حينما تذمَّر يونان على الله إذ سامح نينوى وكان يتمنَّـى هلاكها، يعامله الله بمنتهي الحنان ويعطيه درساً باليقطينة.

٥. بل حنان الله يمتد حتى إلى البهائم.

أفلا أشفق أنا على نينوى المدينة العظيمـة الـتي يوجـد بهـا ١٢٠٠٠٠ إنسان وبهائم كثيرة (يون ٤: ١١).

الرب يقبل توبتنا كما قبل توبة أهل نينوى في القديم.

صلاة

يارب، نشكرك لأنَّك إله محب وغفور،
طويل الرُّوح وكثير الرَّحمة،
لا تشاء موت الخاطئ بل رجوعه فيحيا.

يارب، أرسل علينا جميعًا روح توبة حقيقيَّة،
لنتوب عن خطايانا وأعمالنا الرديئة،
كما تاب أهل نينوى فصفحتَ عنهم.

نحن نطلب رحمتك وغفرانك وعفوك الإلهي يارب،
عن جميع الشرور التي ارتكبناها،
في حقِّ أُبوَّتك ومحبَّتك ووصيَّتك.

كلُّنا خطاة أمامك،
وقد تعدَّينا وصاياك وشرائعك،
ولا نستطيع أن نبرئ أنفسنا من الذنوب والخطايا الـــتي فعلناها أمامك،
بمعرفة أو بغير معرفة.

ارحمنا يارب، واصفح عنَّا،
لأجل الدم المسفوك لأجل جميع الخطاة.
لك كل المجد إلى الأبد. آمين